آثار ميغاليتية من سورية الجنوبية

١ – الهيجانة [١]

الارشمندريت يوسف نصر الله

تعريب وتلخيص : الاستاذ حسن كمال

الهيجانة قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها ١٠٨٢ نسمة ، وتستند في جهتها الجنوبية على هضبة كبيرة . وتقع على بعد ٣٢ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من دمشق وهي من ممتلكات حسين الايبش .

والهيجانة من الناحية الأثرية لم تقدم إلا بعض النصوص اليونانية التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي ويرى العالم « برونو » أن أهمية هـذه القرية يعود إلى برج قديم كان يأخذ مكانه في الجهة الشرقية وقد اختفت آثاره اليوم .

ويعود الفضل في معرفة هذه القرية إلى الملحق العسكري الانكليزي بالجنرال كوليه عام ١٩٤١ ، غير اننا لم نتمكن من القيام بدراسات جدية إلا عـام ١٩٤٩ بفضل مابذل مدير الآثار الأمير جعفر الحسني من جهود ، إذ خصص عشرة أيام للعمل المنهاجي الجدّي في ذلك التل ودراسة مبانيه الأثرية دراسة وافية ، غير أننا فوجئنا بفقـدان الآثار الميغاليتية ، وتبين فيما بعد أن تلك الآثار الحجرية قد جمعت ووضعت جانباً للافادة منهـا لرصف الطريق بين

(١) من اجل المراجع واستشهادات البحث راجع حواشي المقال الاصلي في القسم الاجنبي من المجلة

وكذلك استفيد منها قديماً عندما بنى الأتراك في بداية القرن الحالي الهيجانة ودمشق ، وتكررت المأساة نفسها عام ١٩٢٥ — ١٩٢٦ عندما حولت السلطات الإفرنسية حصناً تركياً . هذا الحصن إلى ثكنة عسكرية للجنود المغاربة والسنغال .

ولجأ قروبو المنطقة لنفس الأسلوب فأجهزوا على بقية الآثار الحجرية ليتصرفوا بها كمواد أولية للبناء . يضاف إلى هذا كله ماقترفته أيدي الحفارين السريين التي لم تبق من آثار المنطقة التزيينية إلا النذر اليسير .

تتجه هضبة الهيجانة من الشمال إلى الجنوب ، وتعتبر منحدراتها عادية الانحدار إلا في النهاية الجنوبية حيث تصبح شديدة الانحدار وترتفع ثلاثين متراً فوق السهل المجاور . وتضيق هذه الهضبة حتى تقسم إلى قسمين شكل (٧) وتقوم القرية على القسم الأصغر منها وهو الشمالي .

واستناداً إلى قانون خلود أماكن العبادة فإن عالم الآثار يصل إلى المقبرة الدولمينية عن طريق المقبرة الحديثة في الهيجانة حيث يوجد عدد كبير من القبور المكشوفة وغير المكشوفة ، وتحيط هذه القبور بقبر هام هو قبر الشيخ علي سليم الصياد . يخترق المقبرة جدار كبير بعضه ظاهر أما البعض الآخر فقد اندثر تحت التراب ، وقد عثر فيها على عدد كبير من الآثار الميغاليتية وبعض الكتل الكبيرة والتي يحمل بعضها الرسوم الهامة . إلى جانب آثار أخرى تختلف أهمية منها الأحجار الميغاليتية القريبة من قبر الصياد . وعلى المنحدر الغربي من القسم الشمالي من الهضبة عثر على بعض الكتل الحجرية الهامة غير أن الأحجار الميغاليتية التي كيفتها يد الإنسان تبقى أقل عدداً منها في القسم الجنوبي . وعثر في بعض القبور على بقايا عظمية وحطام إناء من البازلت . وقد لوحظ بان القسم الجنوبي من الهضبة هو أهم أقسامها لاحتفاظه بالكثير من الآثار بحالة حسنة نسبياً . وكلما تقدمنا نحو الجنوب فإن الأبنية الميغاليتية تصبح أكثر عدداً واتساعاً منها في الشمال . وقد استطعنا خلال اسبوع من العمل تنظيم مصور شامل لكافة آثار هذا الجزء ونعطي لكل منها رقماً معيناً ، ذلك لأننا لم نقم بحفر السبور وإنما بجمع مواد ذات صبغة أثرية من بقايا الأبنية التي عبثت بها أيدي اللصوص والمخربين .

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن الصور الجوية تؤدي خدمات جلى تفوق في بعض الأحيان الحفريات نفسها . إذ يمكن عن طريق تجزئة الصورة الفوتوغرافية إلى أجزاء إيضاح الكيفية التي كان هذا الحقل الكبير من الأحجار منظماً بموجبها .

وإذا كان هناك ثمة مايميز آثار الهيجانة فهو تكوينها من كتل بازلتية غير منحوتة ، وبذلك تدخل جميعها في زمرة الأحجار الخام ، الأمر الذي يجعل منطقتنا هذه تختلف عن قرية الاومباشي والحيبرية إلا أن حالتها الراهنة لاتوحي بكثير عن حالتها الابتدائية قبل اجراء الكشف عليها . فقد يكون البناء المخروطي الجنائزي بمثابة غطاء لأثر ميغاليتي مستطيل الشكل لم تبق الأيام منه أي أثر . وقد يكون هذا البناء الجنائزي مستدير أو بيضوي لايتجاوز ارتفاعه الثلاثة أمتار ، وأحياناً يكون ذلك البناء عبارة عن مرتفع بسيط من التراب ، وبصورة عامة تكون قاعدة هذا البناء محاطة باطار من الحجارة الخام . وعندما يكون البناء المذكور بحالة جيدة فإن كتلاً من الحجارة تبرز من قمته (اللوح ٣ رقم ٢) وهذه الظاهرة نفسها نلحظها في آثار العديمة في فلسطين ، وقد تغطي هذه الأبنية المخروطية قبراً واحداً أو عدة قبور ، وهذه الأخيرة تكون عادة مبنية بعناية فائقة : بأشكال منتظمة ومتناظرة وبأحجار حسنة الاختيار . ويبدو أن هذه المقابر كانت تخص أسراً ذات مستوى اجتماعي رفيع لأن قبورها معتنى بها أكثر من قبور الآخرين ، ومغشاة بطبقة واقية من التراب خلافاً للقبور الأخرى التي لا أثر فيها لهذه الطبقة . وما الدوائر التي نراها محيطة ببعد القبور إلا لتحديد المنطقة المقدسة المخصصة للقبور من جهه ودعم البناء الداخلي من جهة اخرى ، وإلى جانب الدوائر الآنفة الذكر كنا نلاحظ وجود دوائر أخرى مستقلة لا تحيط بالقبور وفي هذه الزمرة يوجد نوعان : الأول دوائر تحيط بمحور مركزي مؤلف من كتل من الحجارة الخام وليست لها أي هدف ديني . أما النوع الثاني فهي دوائر لا تحيط بأية دعامة أو محور وغالباً مايكون لها تفسير ديني . وكثيراً مايكون المحور أو الدعامة المركزية قاعدة يرتكز عليها السقف الخشبي المؤلف من الأغصان والأعمدة الخشبية ، وإلى الآن لم يعثر على أثر للسقوف الحجرية .

أما القبور التي كانت تستعمل لدفن الموتى فلم تكن معروفة إلا على منحدر الهضبة الغربي وفي أماكن أقرب إلى القاعدة منها إلى القمة ، ويبلغ عمقها أحياناً المتر ، وتكون هذه القبور في

مناطق أخرى أصغر حجماً . وقد بنيت جوانبها من أحجار مغروسة غرساً أو من كتل متوضعة الواحدة فوق الأخرى . وأحياناً كنت ترى فيها خليطاً من الأحجار المغروسة والكتل المتوضعة .

أما القبور المحفورة في الأرض فهي نادرة ويختلف شكلها فيكون تارة مربعاً وأخرى مستطيلاً أو شبه منحرف وقد تجد بعضها على شكل مستدير . غير انه يندر أن نجد قبراً محتفظاً بغطائه ولما كنا لم نقم بعد بأية حفرية في تلك القبور فمن الصعب التكهن بما يمكن أن يكون فيها ، إلا ان ما جمعناه من حولها كان يتمثل في كسرات من العظام والأواني البازلتية والفخارية والأحجار الكريمة ، ومن الصعب جمع القطع العظمية الى بعضها لتكوين فكرة عامة عن مميزات الهيكل العظمي لسكان تلك المنطقة يومئذ .

يبدو ان الدولمن التي ما زالت بحالة جيدة في منطقتنا هـــذه ليست لها صلة بشبيهاتها في بروتانيا أو في بلاد المؤابين ، إلا ان أشكالها تدعو لتصنيفها في زمرة الدولمن الوسطى أي من النماذج البسيطة التي ليس لها ممر وهي ذات شكل كلاسيكي قديم ! بناء مربع أو مستطيل الشكل مؤلف من أربع كتل ، ومن النادر العثور على واحدة منها وقد حافظت على سقفها ، وكثيراً ما كنا نصادف كتلتين حجريتين متقابلتين دون العثور على الجدار الثالث . والدولمن غرفة للموتى مفتوح أحد جوانبها بينما الجوانب الأخرى مغلقة بأحجار خام وجميعها من النماذج المبنية في الهواء الطلق .

أما المواد الأثرية التي تم العثور عليها فيجب التمييز فيها بين الأدوات السليكسية التي تم العثور عليها على سطح الهضبة أو في أسفلها والأدوات التي وجدت بالقرب من القبور المنهوبة .

وتعتبر القمة والمنحدر الشرقي من الهضبة من الأماكن التي لم يعثر فيها على أدوات اطلاقاً بينما الحقل الذي يحاذي الهضبة من الناحية الغربية يمكن اعتباره من أغنى المناطق في تلك الأدوات ، حيث عثر على عشرين قطعة ذات أهمية وكذلك على نصلتين احداهما ذات قاطع طبيعي ونواتىء ظهرية بينما النصلة الثانية ذات قاطعين ، كما عثر على قطعة من منجل ، ومقاشط مختلفة ، وغيرها أشياء كثيرة . وبالإضافة إلى ما ذكر فقد وجدت في قمة التل وعلى سفحه الجنوبي العديد من القطع الهامة منها مقاشط ذات حجوم صغيرة ، وبقايا سكاكين ، وسهام ...

أما القطع التي عثر عليها في الجهة الغربية من التل فهي أكثر عدداً وتشير بوضوح إلى انها ثمرة وجود جماعة عاشت في ذلك المكان في عصر ما قبل التاريخ ، وقد جمعنا قرابة مائتي قطعة

منها نصلات ذات قاطعين وقاطع واحد ، وكذلك كان بينها عدد من المثاقب والمقاشط وكلها صغيرة الحجم ، بينما القسم الثاني منها ذات مقاييس متوسطة منها مناجل وسكاكين ومقاشط اسطوانية الشكل ، وفأساً وسندياناً ، وكسرات من الفخار تعود إلى عصور مختلفة ، ومن المتعذر تحديد الصناعة التي تعود إليها هذه القطع ، وكل ما يمكن أن يقال في هذا المجال انها تتفق كل الاتفاق على ما عثر عليه من القطع في القمة والمنحدر الشرقي للتل . وتعتبر المواد الأثرية التي جمعت بالقرب من القبور المنهوبة ذات أهمية بالغة من الناحية التوضيحية ولا يمكن أن ترقى اليها الأدوات التي عثر عليها على سطح التل ، ومن المؤسف ان هـذه المواد على غاية من الضآلة وما هي في الحقيقة إلا بقايا ما تركه المخربون باستثناء جرة صغيرة ونموذج وجد في مشرفية ويعود إلى عصر البرونز الثاني .

وبين المواد التي عثر عليها قطع مصنوعة من بيوض النعام يبلغ عددها احدى وعشرين قطعة ذات حجوم مختلفة اذ يبلغ طول اكبرها ٤٧ ميلمتراً وأصغرها ١٥ ميلمتراً وهي اما مستديرة أو مستطيلة الشكل . وهذه القطع مميزة بثقوب يختلف مكانها على القطعة فتارة تكون على الوجه الأعلى وأخرى على الأسفل ويتراوح قطرها بين واحد وثلاثة ميلمترات ، ولا تحمل القطع المذكورة أي نقش بينما نراها مصقولة الحوافي صقلا جيداً . ومن الصعب معرفة نوع استعمالها على وجه الدقة علماً بأن بعضها يمكن اعتباره نوعاً من الحلي ، الا ان بعض هذه القطع المصنوعة من بيض النعام تحمل بعض التزيينات الهندسية . كما تم العثور على قواقع بعض الحيوانات البطنية الأرجل وقد تمكنا من جمعها في خيط لتأخذ الشكل الذي كانت تستعمل عليه فيما مضى كأدوات لزينة الرأس والعنق والسواعد والأرجل . ويتراوح طول القوقعة الواحدة بين ١٠ - ١٦ ميلمتراً وهي مثقوبة ثقباً يختلف سعة من واحدة لأخرى ويمكن تعليقها بحيث يكون الرأس نحو الأسفل . غير ان أكثر هذه القواقع بالية إلا واحدة وجدت بحالة سليمة محتفظة بلونها البيج .

وهناك أنواع أخرى من القواقع يرجح أن سكان الهيجـانة قد جمعوها من شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، بالاضافة إلى قواقع أخرى مخروطية الشكل والتي تعتبر كذلك أدوات للزينة لما فيها من ثقوب صنعتها يد الإنسان لتثبيتها في خيط وبالتالي تعليقها . ويرى بعض العلماء أمثال بروبيون ان هذه القواقع تعود الى بحر التيرانيان والأبيض المتوسط ، غير ان هذه القواقع لم يعد لها وجود اليوم إلا في أفريقيا الغربية . ويبدو أن سـكان منطقة الهيجانة هم الذين أكملوا حليهم فثقبوا القواقع التي لم تكن مثقوبة ، ووسعوا ثقوب المثقوبة منها ثقباً طبيعياً ،

وتختلف تلك القواقع من منطقة الى أخرى . وقد نشر اميل ريفيير قوقعة من منطقة الألب ماريتيم تشبه الى حد بعيد ما عثر عليه في منطقة الهيجانة . وهكذا فان ما وجد في مقابر الهيجانة يشابه الى حد بعيد ما وجد في مناطق تعود الى نفس العصر بالرغم من تباعد المنطقتين .

وقد أخرجت أرض الهيجانة عدداً كبيراً من الأحجـار الثمينة الاسطوانية الشكل والتي يتراوح قطرها بين ٦ — ٩ مم . أما سماكتها فتبلغ الميليمترين وهذه السماكة الثانية تحملنا على الظن انها انما صنعت من بيض النعام وهذه الأحجار الثمينة ذات أشكال مختلفة ، أمـا الثقب فهو يختلف حجما من واحدة لأخرى . وتعتبر هذه الأحجار من النماذج التي اكتشفت في الدولمين . أما في فرانسا فإن المادة التي صنعت منها فهي الحجر الكلسي أو قواقع بعض النواعم وفي هذه الحال تكون السماكة مختلفة من واحدة لأخرى . وإضافة الى ما ذكر هناك أحجار ثمينة على شكل عصا صغيرة يبلغ طولها ٤٣ مم أما سماكتها فتتراوح بين ٣،٥ — ٤ مم وهي مثقوبة من طرفيها ويمكن أن تكون قد قطعت من صخرة كلسية أو من قوقعة ضخمة ، كما تم العثور على مجموعة من الأحجار العقيقية بعضها مستدير الشكل يبلغ قطره ٥ — ٩ مم ، أما البعض الآخر فهو من العقيق الشفاف . وإلى جانب كل ما ذكر وجدت بعض القواقـع البحرية التي تشير بوضوح الى أن سكان الهيجانة كانوا يقومون بمبادلة حليهم ، كما كانوا ينقلونها من مـكانهم الى أماكن أخرى للحصول على حليهم التي تم العثور عليها في أماكن بعيدة عن أراضيهم . ومن المفيد كل الفائدة معرفة أماكنها الأصلية ، وهذه الأحجار الثمينة أكانت كلسية شفافة أم من العقيق فهي مشابهة الى مثيلاتها التي وجدت في البلاد الأخرى والتي تعود الى العصر الميغاليتي .

وإذا كانت أراضي الهيجانة الخيرة قد أخرجت الأشياء الآنفة الذكر فقد عثر بالقرب منها على أبنية ميغاليتية وخرائب وتلال تستحق الاهتمام العلمي والقيام فيها بحفريات منظمة ، وأهم تلك المناطق : المغاير والقصرين والدولاب ، فالأولى والثانية تقعـان في الجهة الجنوبية الغربية والغربية من الهيجانة . أما الدولاب ففي الشرق منها .

المغاير : يعرف سـكان هذه المنطقة تحت هذا الاسم مجموعة من الكتل الحجرية متجهة من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي . كما يوجد هناك كتل أخرى من البازلت تجثم في هذه المنطقة بعضها موزع بشكل طبيعي والبعض الآخر عملت في تنظيمه يد الانسان . وفي النهاية الجنوبية لهذه المنطقة بناء ضخم مستطيل الشكل أبعاده ٤٠ × ٢٠ م مؤلف من جدار تبلـغ سماكته

مترين من الحجارة الخام المتوسط الحجم ويقوم في داخل هذا المستطيل مربع طول ضلعه عشرة أمتار مؤلف من صف واحد من الحجارة الخام وكومة من الأتربة والحصى يرجح انها تغطي بعض القبور . وقد لاحظنا أن بعض الكتل الحجرية تحمل رسوماً ، ومن هذه الرسوم صورة لفارس رسم بلون ترابي ، وعلى كتلة أخرى دائرتان ، كما عثر على كتابة نبطية ، وأخرى عربية كتبت بالخط الكوفي تقول أشهد أن الله حق ، وقد يكون صاحب هذه الكتابة مسلماً أو نصرانياً . وتحيط الكتل الحاملة لهذه الصور والكتابات بسور مستطيل الشكل .

وهذه الكتل الحاملة لهذه الصور والكتابات قائمة على مرتفع صغير وتحيط بسور مستطيل الشكل وعلى هذا المرتفع وجدت بعض الآثار الميغاليتية . ومنها كتل من الحجارة البازلتية الحاملة لبعض رسوم حيوانات من ذوات الأربع ، وتعتبر النهاية الشمالية الغربية من قمة التل أكثر ارتفاعاً من بقيته ، وقد عثر فيها على بعض الرسوم ومنها صورة حصان ، وصليب وكتابة عربية كوفية تمكنا من قراءة بعض كلماتها ومنها : عبد الهول ... الخط ... حول اللاة ، كما وجدت كتابات عربية أخرى بحروف عادية من الصعب قراءتها . وبدلاً من أن تتجه هذه الهضبة نحو الشمال نراها تتحول الى نجد يتجه نحو الغرب ويكتسي بكتل من البازالت وفيه من الآثار ما في بقية الهضبة وزيادة على ذلك دولمين اثنين يبلغ ضلع أحدهما ثلاثة أمتار وما زال محتفظاً بغطائه لوح ٩ رقم ٢ أما الثاني فهو محطم ويهبط هـذا النجد فيما بعد نحو الغرب بينما تتلاشى منحدراته في السهل المجاور .

وعلى بعد كيلو متر واحد الى الغرب من المغاير مرتفع صغير يعرف باسم مغز" الرماح وفيه العديد من الأبنية الميغاليتية المؤلفة من كتل حجرية متوسطة الحجم عليها بعض الرسوم ، وكذلك بعض القبور التي تعود الى العصر الروماني البيزنطي ، بالاضافة الى أبنية أخرى مبعثرة على هضبة معروفة باسم الراس وتقع الى الجنوب من البيطارية وهي احدى ممتلكات حسين الايبش .

القصرين : القصرين هضبة ممتدة باتجاه جنوبي شمالي وترتفع كلما اتجهنا نحو الجنوب الغربي من الهيجانة ، يتوج جهتها الجنوبية بناء مستطيل تتألف جدرانه من أحجار مربعة منحوتة تشد بينها طبقة من الاسمنت . وإلى الجنوب من البناء المستطيل يقوم بناء ميغاليتي مستدير من البازالت ، وفي نهاية القمة الشمالية حيث تنحدر نحو السهل بناء مستطيل بني من الحجارة المتوسطة الحجم ،

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية عثر على قبر يعود. الى عصر البرونز ؛ وقبور اخرى تعود إلى عصور لاحقة لعصر البرونز ، وقد اقيمت جدرانها الداخلية بالحجارة والاسمنت وغطيت فوهاتها ببلاطات ، وعثر فيها الحفارون السريون على أقراط ذهبية وسرج فخارية وقطع زجاجية الأمر الذي يبعدنا عن عصر ما قبل التاريخ ويجعلنا أمام العصر البيزنطي .

الدولاب : أما الدولاب فهو تل يقع على بعد بضعة كيلومترات الى الشمال الشرقي من الهيجانة ، ويغطي سطحه العديد من القطع الفخارية ، وينسج الناس حول الثروات الدفينة لهذه المنطقة قصة مفادها ان ملكا يدعى دولاب كان قد حكم مدينة قديمة تهدمت فوق رؤوس أصحابها وأن التل الحالي الذي نحن بصدده يشغل مكانها ، ويقال ان كنوزاً ثمينة مدفونة في مكان يدعى بالمقبرة الواقعة في السهل المجاور . غير ان الشيء الذي لا جدال فيه هو ان التل كان فيما مضى آهلاً بالسكان خلال عصر طويل يمتد من الاينوليتيك حتى العصر الهلنستي ، وتكثر في هذا التل الكسرات الفخارية وأكثرها من الفخار المطلي ، وقد عثر فيه على كسرات من اناء بازلتي وأجزاء من هراوة وبعض قطع من السيلكس المشطوف . وقد أخرجت تربة هذا التل بعض عظام الحيوانات وأدوات من السيلكس والنصال المختلفه الأشكال ومنها ذوات نتوءات ظهرية ، ومنها ما هو ذو قاطع واحد واخرى ذات قاطعين . وبالاضافه إلى هذا فقد جاءت أرض هذا التل بالعديد من المقاشط والتي منها ما هو مستدير ومنها ما هو على شكل حرف D وكذلك المثاقب الطويلة ، والمثاقب ذات المقابض العريضة . وكذلك السكاكين ، ومقص من السيلكس المصقول ، ومناجل تشبه ما يصادف عادة منها في عهد البرونز الثاني والثالث والتي عثر على نماذج منها في مدينة درعا . أما الفخار فقد وجد ممثلاً خير تمثيل في جرة قاتمة اللون ، ذات عنق قصير ، مجهزة بعروة ، ويمكن أن تعود الى عصر البرونز الثاني ، الى جانب قطع أخرى من الصعب تحديد عصرها على وجه الدقة .

أما أدوات الزينة فتتضمن العناصر الآتية : أحجار ثمينة منهـــا ما هو كروي يبلغ قطرها ٨ ميلمترات ويجمع بين قطبيها ثقب اسطواني أما لونها فهو بني حار مع وجود مناطق أكثر عمقاً ويرجح ان هذه الأحجار الثمينة من العقيق ، وهناك أحجار أخرى أكبر قطراً من السابقة وهي من نوع الحجارة الاندفاعية وفيها بعض النقاط البيضاء والخضراء ، وكانت للأساور نصيب وافر في هذا المجال بدليل وجود قطعة رائعة من سوار زجاجي مصقول السطح محلى بألوان قزحية .

وهناك كذلك نماذج من الحلي المعدنية والعقيقية .

تل الحويج : تل الحويج مرتفع ينتصب في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحيرة الهيجانة وقد عثرنا في قاعدته على بعض الكتل الحجرية الخام وعلى قبر على منحدره الجنوبي .

تلال الرعيانه : هي مجموعة من المرتفعات كما يدل عليها اسمها ذات لون أبيض . وهناك رابية تشرف على هذه المرتفعات جميعاً ، وقد عثر فيها على بعض الكسرات الفخارية وقطع من السيلكس من النوع الذي وجد في مقبرة الهيجانة ، وقطع من البرونز عديمة الشكل تدل على أنه كانت لهذا الموقع صفة أثرية هامة . وقد عملنا في هذا الموقع وامتد عملنا حتى دير النصراني . وعلى بعد كيلومترين الى الغرب من هذا الموقع هضبة صغيرة يقوم عليها بنـــاء مستطيل من الأحجار الخام ، وفي وسط هذا البناء المستطيل قبران من الحجارة المتوسطة الحجم . أمـــا المنحدر الشمالي الشرقي من الهضبة فعليه سور من الحجارة تتخلله بضع بيوت صغيرة أشبه بحظائر الأغنام التي نصادفها في كل العصور في المناطق الصحراوية .

وصفوة القول أن دراستنا البدائية للآثار الميغاليتية في سورية لا تسمح لنا بعقد مقارنات من شأنها أن تؤدي الى تأريخ الآثار التي أتينا على ذكرها في بحثنا . فالبنيان الموحد للآثار الميغاليتية في الهيجانة والمناطق المجاورة يربطها بعصر واحد ، وبالاضافة الى هذا فان وجود العظام وبعض عناصر الزينة والفخار يجعلنا نصنف أكثر الآثار في زمرة القبور مما يجعل الهيجانة مقبرة دولمنية (نسبة الى دولمن) ولا يدخل في زمرة المساكن إلا أساسات الأكواخ المتواضعة ، إلا أن بعض المباني الميغاليتية المستديرة منها والمستطيلة المجهزة بالدعائم تسمح باستعمال السقوف وهذه الأبنية الأثرية أقل عدداً من الأولى وهذا ما جعل الهيجانة متميزة عن غيرها من المناطق المجاورة لخربة الاومباشي وجبل الدروز وهذه الاختلافات تتجلى عند فحص المواد المستعملة . فالمواد المألوفة المستعملة في الهيجانة وانعدام الدولمن الكبيرة الحجم يجعلنا نصنفهـــا في أواسط العصر الميغاليتي . ويدعم هذه النتيجة التي حصلنا عليها الآثار التي عثر عليهـــا ، وهذه الآثار تعود الى حضارة تل الغسول ودرعا وتعتبر أقدم من الآثار التي عثر عليها في الدولاب التي تقترب من الثقافة الكنعانية والتي نراهـــا في بلاد فلسطين . وهنا لا يمكننا اقصـــاء الفرضية القائلة بوجود حضارة أكثر قدماً قائمة جدورها في الطبقات السفلية لتل الدولاب ، لأن الهيجانة لا يمكن إلا أن تكون مقبرة لمنطقة تجمع كبيرة وهي الوحيدة التي استطعنا معرفة وجودهـــا

في المناطق المجاورة لها ، والهيجانة بالنسبة لتل الدولاب البدائي كموقع الاديمية بالنسبة لتليلات الغسول . وإنسان الغسول هو أحد بناة الحضارة الميغاليتية التي نصادفها اليوم في فلسطين .

والغسوليون ليسوا من البدو الرحل ، وإنما هم من المقيمين الذين سكنوا بيوتاً من الآجر المصنوع باليد . وقد تعاطوا الزراعة ورعي الأغنام . والهيجانة تقع على حدود سهل المرج الخصيب وديرة التلول ، إلا أن تطور أشكال بعض القبور يحملنا على الظن بأن الهيجانة سارت في خط تطور واحد مع الدولاب وبقيت مقبرة بعد أن مرت بثقافة تعتبر أكثر تقدما .

وعلى الرغم من وجود بعض الأمثلة عن المساكن الميغاليتية ذات الدعامة المركزية في خربة الاومباشي وعدد من الأكواخ الاينوليتيكية في جبل الدروز فإن هذه المواقع الأثرية ليست معاصرة لمقبرة الهيجانة وإنما هي متأخرة عنها . أما التاريخ الذي يعود اليه استعمال مقبرة الهيجانة فهو الألف الثالث وقد امتد استعمال الهضبة حتى عصر البرونز الثالث ، ومنذ ذلك الحين ما زالت آهلة بالسكان ، وقد جعل الصفويون منها فيما بعد المكان المفضل لهم ، وترك رعاتهم الكثير من الرسوم كذكرى لمرورهم كما أقام الرومان فيها تحصينات وبرج للمراقبة . ويحمل المنقبون السريون منها الى تجار الآثار العديد من القطع الأثرية التي تعود الى العهد البيزنطي وقد وجدوها في الأماكن المجاورة لها . أما العصر العربي فقد ترك فيها العديد من الكتابات الكوفية والحديثة . واليوم في الوقت الذي تغدق على أسواق دمشق الكثير من البطيخ الأحمر فان البدو يزرعون خيامهم السوداء على منحدرات الهضبة حاملين ذكرى مختلف ساكنيها على مر العصور .

أما الصور المحفورة على الصخر فهي على جانب كبير من الأهمية لما تضفيه علينا من المعارف ، وفي القرن التاسع عشر أدهشت تلك الصور المحفورة على الصخر في صحراء سورية العديد من المسافرين ، وفي عام ١٨٥٦ أشار العالم دوسولسي في كتابه « رحلة حول البحر الميت » الى أهمية الإشارات الفلكية المحفورة فوق الصخر في القسم الجاف من البلاد اليهودية ، ومنذ ذلك الحين والصحراء تكشف لنا الكثير من خفايا فنونها الجدارية وآلاف الصور المحفورة في الجهة الشرقية من سورية وشرق الأردن والنقب وصحراء سيناء .

وقد ميز العالم آناتي الذي درس هذا الفن البدائي في الشرق الأدنى ، ميز سبعة أساليب مختلفة واعتبر أن أقدم هذه الأساليب هو الذي يعود الى الألف الرابع ، وهو مؤلف من

رسوم ذات خطوط بسيطة ، أما الأسلوب الثاني فيعود الى الألف الثالث وتميل أكثر أشكاله الى الاستدارة وفيه تتجلى الناحية الشكلية بعناية ، بينما يميل الاسلوب الثالث الى الواقعية المفعمة بالحيوية . ويعود هذا الاسلوب الى النصف الثاني من الألف الثاني ، في حين ان الاسلوب الرابع تحولت فيه الأجسام الى خطوط ، وفيه تكثر المناظر الحماسية ، وقوافل التجار ، وأما الاسلوب الخامس فلا يختلف كثيراً عن سابقه ، بينما يكشف الاسلوب السادس عن انحطاط في الرسم والتشكيل وفيه ظهرت بعض الكتابات العربية القديمة ، وفي الاسلوب السابع الذي يمتد من القرون الوسطى حتى عصرنا تميل فيه الرسوم الى التجريد ، وغالباً ما تمثل تلك الرسوم رموز القبائل (وشم) وبعض الرسوم الهندسية ، وقد نصادف الى جانب تلك الرسوم التجريدية صوراً واقعية ذات طابع جديد يمكن اعتبارها من القرن الأخير .

وقد اعتمد العالم دوسو على درجة تأكسد البازالت في تصنيف الرسوم التي اكتشفها عام ١٩٠١ في صفا . وفي الهيجانة وما حولها من المناطق المجاورة ليس هناك من رسوم نقشت بواسطة المنقاش وإنما تمت تلك الرسوم بطريقة التنقيط . والملحوظ أن اسلوب الرسم والتلوين كانا في غاية الاتقان والانسجام وتعتبر الألوان الأسود والترابي والرصاصي هي الألوان السائدة في تغشية الصور المحفورة .

أما الكتابات العربية الكوفية ذات اللون الرصاصي فتدخل في نطاق الاسلوب السادس وتصنف بين القرن العاشر والسابع عشر في حين أن الكتابات العربية العادية لا يتجاوز تاريخها القرن التاسع عشر . وأما الأشكال الهندسية المستديرة التي تتكرر كالدائرة التي يعلوها علم أو صليب أو خط بسيط إلا رموز القبائل (وشم) الوشم الذي تشم به القبائل أغنامها .

ففي العصور القديمة كما في عصرنا الحاضر كانت تلك المنطقة أرضاً خصبة في رعي الأغنام وفي الهجرات الموسمية ، ويلاحظ ان نفس الاشارات والرموز المستعملة اليوم كانت تستعمل منذ آلاف السنين ، أما مقدار قدمها فيمكن معرفته عن طريق تدرج الألوان التي عثر عليها فوق الصخور .

وفي صيف عام ١٩٦٢ عثرنا على بعض الآثار الميغاليتية منها بقايا عظام فكية ، وقد تولى الأستاذ راوول هارتويغ دراستها في مقال خاص ملحق بمقالنا هذا . أما الآثار الأخرى فهي

عبارة عن ثلاث حلقات الأولى منها صغيرة مفتوحة ، مصنوعة من البرونز ذات لون رمادي شكل (٩ — A) أما سماكتها فهي عند الفتحة أقل منها في بقية أجزائها وتنتهي نهايتاهـا برأس رفيع . ولا تسمح دقتها بمعرفة ما كانت عليها في الأصل بعض التزيينات ويرجح أنها تستعمل لتزين معصم طفل صغير .

أما الحلقة الثانية شكل (٩ B) فهي كلسية التركيب يرجح أنها قطعت من قوقعة كبيرة ، إذ تتراوح سماكتها بين ٣ — ٥ ميلمتر . وهي أقرب الى مثيلاتها في افريقيا منهـا في أوربا وذلك بسبب كبر القوقعة الغريبة التي قطعت منها .

وأخيراً الحلقة الثالثة شكل (٩ — C) مستديرة الشكل زجاجية التركيب يخالطها لونان الأصفر والبني المحروق وتتشكل من قضيبين من الزجاج المضفور وهي طريقة قديمة استعملت منذ عرف الزجاج . هذا وقد تم العثور كذلك على بعض الكتابات التي قام الأستاذ ڤاندين براندين بدراستها .